المشرق

حال الخلف بازاء من سلف

وهي نبذة في اصل الكلدان النصارى واتساع ملّتهم ولغتهم

لحضرة القس قرياقوس مخوق المخلّص

١

لو تصوّرتَ بعقلك الصائب الاجيال المتقدمة الخالية لرأيت المشرق مستويًا على سدّة الحضارة والعمران مجليًا بشعار الفنون وانواع العلوم ناشرًا راية الافتخار في سائر الاقاليم التي قد عشت لمعارفه ساجدةً واقرت بسعد طالعه وما لهُ عليها من الافضال طوعًا. ولولا التواريخ التي قد صانت لنا من الحوادث اقلّها كما ولولا الآثار التي أقد طمس الدهر اذ ذاك علَمها لضاع مجدُ المشرق في هذا العصر الاغرّ ولتلبّد ظلام الهمجية بازاء تبلّج صباح هاتيك الاعصار الذهبية والقرون الرقية فتبًا للدهر ما اكثر صروفهُ وامرٌ حدّثانهُ ولقد صدق من قال:

الدهر لا يُبقي على حالةٍ لا بدَّ ما يُقبلُ او يدبرُ

لعمر ابيك ماذا كنت ترى لو صرفتَ بصرك الى ما خلا من الاجيال المتوسطة اليس انك ترى احوال تلك القرون الماضية قد تغير محيّاها البسّام ومشرقنا قد انحطّ عن ذروة عزّهِ وخلع عنهُ شعارهُ وتنكّس علَمُهُ فعفّى الجهل آثاره ايضًا ودرس الحمق سجلّات اخباره. والّا فاين هي اخبار هاتيك المنتديات والجامع الحافلة والمكاتب الكاملة والمكتبات الجامعة والتواريخ الشائقة ثم اين هي آثار هاتيك الممالك العظيمة العالية الشان الواسعة الارجاء من مشيداتها الرفيعة وقلاعها المنيعة ومدنها الحصينة

وابنيتها المكينة فقد كانت هـذه الآثار جوهرة مكنونة في بطن الارض حتى بعثر مكتشفو الفرنج الافاضل ما في قدمياتنا من المطمورات والدفائن والكتابات الحجرية والتماثيل الرخامية البديعة الصنع والنقود والصكوك التجارية والآنية الخزفية وغير ذلك مما يشف عن تاريخ اولئك الجبابرة المشهورين وما كانوا عليه من اوج العز وسكرة الاقتدار . فشهدت ولا حرج هـذه المنبثثات على مسمع هذا العصر للطيف نُهَى صافيها وشدة ذكائهم كما شهد العصر نفسهُ لثاقب عقل مكتشفيها الذين قد حسروا القناع عن معماها بعد ان تعبوا فافلحوا فتاجروا بها فربحوا واذاعوها شرقاً وغرباً فمُدحوا

وليت سلالة اولئك الملوك الجبابرة الذين دانت لهم الاقاصي والادانى اعني بهم الكلدان ابناء جلدتي ونحلتي يأخذون بالبحث ولستُ اقول بالاكتشاف عن مآثر اسلافهم وتواريخهم . اليسوا هم ابناء اولئك الذين اوتقوا الى الفلك ولكن لا بمرقاة (منطاد) . وداخوا البلادَ ولكن لا بالمدافع . وشيدوا المدن والقلاع ولكن لا بالاحتذاء . وابدعوا في التشخيص والتصوير والتطريز وسموا بصناعة الطب وفاقوا اقرانهم بتدوين اخبارهم واليك ما كتبهُ عنهم ابو الفرج غريغوريوس بن العبري في كتابهِ تاريخ مختصر الدول :

الكلدانيُّون أمةٌ قديمة الرئاسة نبيهة الملوك كان منهم النامردة الجبابرة الذين كان اولهم نمرود بن كوش من بني حام باني المجـدل (البرج) . وكان من ولد نمرود بختنصَّر الذي غزا بني اسرائيل وقتل منهم خلقاً عظيماً وسبى بقيَّتهم وغزا مصر وافتتحها ودوَّخ كثيراً من البلاد ولم يزل ملك الكلدانيين ببابل الى ان ظهر عليهم الفرس وغلبوهم على مملكتهم وابادوا كثيراً منهم فدُرست اخبـارهم وطمست آثارهم . وكانت من الكلدانيين حكماء متوسعون في فنون المعارف من المهن التعليمية والعلوم الرياضيـة والالهية . وكانت لهم عناية بأرصاد الكواكب وتحقيق بعلم اسرار الفلك ومعرفة مشهورة بطبائع النجوم واحكامها . . . ولم يصل الينا من مذاهب الكلدانيـين في حركات الكواكب ولا من ارصادهم غير الارصاد التي نقلها عنها بطليموس القلوذي في كتاب المجسطي فانهُ اضطرَّ اليها في تصحيح حركات الكواكب المتحيّرة اذ لم يجـد لاصحاب اليونانيين ارصاداً يثق بها (اه)

فويحاً للدهر الخؤون ما اكثر صروفه . كيف جار علينا ودرس تلك الآثار والمآثر والعـلوم والفنون التي يتحرَّق لها كل ذي ذوق بالمعارف . وما ذلك الا لان هذه الامة

قد اخذت بالهبوط والانقراض شيئاً فشيئاً الى عهد المسيح. فتغيرت شؤونها بتسلط الفرس عليها وتبدّلت احوال بلادها واهلها بفتوحات الاسكندر واستيلائه عليها والباعث في ذلك جليٌّ في الكتاب الكريم المقدّس من امر مختصر وخيلائه وتجبّره. ذلك نبوةٌ من الله القيوم الذي يقرض الممالك والدول المتشامخة الطاغية وملكه الازلي ثابتٌ الى ابد الدهور

٢

غير ان هذه الامة العظيمة وان اندثرت مملكتها واكدّ بهاؤها فلم تزل محافظة على جنسيّتها ولغتها الاصلية الآرامية في عهد المسيح وبعده الى يومنا الحاضر ومن الأمر الذي لا يعتريه ريب ان النصارى القاطنين في بلاد بابل وآثور والجزيرة وكردستان هم من سلالة تلك الامة العظيمة ولا حقّ لاحد ان يفرقهم عنها البتة وهم النصارى البكورة الذين ثبتوا على الايمان المسيحي القويم منذ عهد الرسل الى هذا الحين مع مقاومة الاضطهادات المتعدّدة التي دامت عشرات من السنين بل مئاتٍ ولم تقدر ان تزعزعهم عنهُ البتّة

قال الشيخ العلّامة السمعاني: يُراد بالكلدان الآثوريون ايضاً وهم الذين دُعوا شرقيين مطلقاً ونساطرةً (اه). وغير خافٍ عنك ان اسم النسطرة ليس اصلياً فيهم بل استعاريٌّ لان اصلهم في النصرانية مسيحيّون كاثوليكيون ولم يقتبّلوا لبدعة نسطور الّا في القرن الخامس للمسيح. والآن كثير منهم قد رفضوا تلك البدعة وانضمّوا من عهدٍ ليس ببعيد الى سلك ابناء الكنيسة المقدّسة الجامعة وصاروا جزءاً معتبراً فيها

اما سبب تكنيتهم بالنساطرة فكان لعموم هذه الهرطقة عليهم زماناً مديداً واختصاصهم بني هذه الملة وهذه الانحاء بها دون غيرها ولا يرضون لانفسهم ان يُدعوا نساطرة ولا هم يكنّون انفسهم بهذا اللقب بل يعرّفون انفسهم بالمسيحيّين (ܟܥܒܣܬܝܐ) ولقب فطريركهم فطريرك المشرق (ܦܛܪܝܪܟܐ ܕܡܕܝܢܚܐ)

واما سبب تسميتهم بالكلدان وكان ذلك بحتم اوجانيوس الرابع فكان من اجل اصلهم وارضهم وهي العراق المعروف بديار الكلدان لدى القدماء. وهناك كانت كنيستهم العظمى الاولى لقدميّتها واهميّتها عند آثار بابل المعروفة اليوم بسلمان پاك وطاق كسرى اللذين يبعدان عن بغداد مسافة ست ساعات والواقعَين في جنوب شرقيها وكانا يُعرفان

قديماً بالمدائن (ܣܠܝܩ ܘܩܛܝܣܦܘܢ) سليق وقطيسفون. وقد كانت المدائن يوماً عاصمة بلاد الفرس والاكاسرة مذ ذاك الحين فالى زمانٍ مديد. وكان متلمذو هذه الديار مار توما الرسول الذي ادخل اصبعهُ في جنب المسيح ومار ادّي احد الاثنين والسبعين تلميذاً ومار ماري واتي تلميذي ادّي . وهولاء الرسل الاربعة وخاصّة ادي ومـاري هم الذين نصبوا الكنائس الكلدانية في الشرق وهم الذين وضعوا ليتورجيّتها التي تُعرف الى يومنا هذا باسم الرسولين مار ادي ومار ماري وفي الآرامية اي الكلدانية تُعرف باسم ܩܕܝܫ ܬܪܥܝܗ (قُدّاس الرسل)

وكان المقدّم والزعيم في هذه الناحية الشرقية الاب الجالس على تلك السدّة وكان في بادئ الامر مقرُّ الفطريرك رئيس المطارين في فطركية انطاكية وكان لجاثليق المدائن مع التعلق بفطركية انطاكية الامر والنهي وكامـل الاستيلاء والسلطان العام على جميع المطارين والكنائس الموجودة في ديار الكلدان المراد بها العراق وآثور (وهي بلاد الموصل) والجبل (وهو فرتيـة ومادي حسب القديم) والاهواز وفارس كلها وبعض الجزيرة (اي ما بين النهرين) حتى بلاد التتر والصين والهند. وصار امتداد استيلاء الفطاركة في مرور الزمان عظيماً جدًّا حيث انهُ اشتمل على جميع الديار التي انتشرت فيها بدعة نسطور في المشرق كلهِ شرقية كانت جهتهُ ام غربية وتحت اي سلطة وُجدوا في تداول القرون. لان بلادهم هـذه قد كانت مستقرّ اقدم الدول واعظمها. ففيها تشيدت اركان الدولة الاولى في العـالم المعروفة بمملكة نمرود او بابل لان نمرود كان اوّل من شيد الملك وسنّ لهُ سنن التجنُّد والغزو والاعتراف بالرئاسة العليا. وقاعدتها كانت بابل في العراق العربي ثم استولى عليها الآثوريون ثم بعدئذٍ اجتمعت المملكتان في واحدةٍ ونشأت من ذلك مملكة نينوى ثم مملكة بابل الثانية في عهد بختنصر الملك وخلفائهِ فملوك مادي وفارس فملوك الروم في عهد الاسكندر ذي القرنين خلفائهِ فملوك الطوائف (اي فرتية وهم الارشاقيون. ويسمون ايضاً ملوك الجبـل) فمملكة فارس الثانية (وهي الساسانية) فالخلفاء العبّاسيون المسلمون فالمغول فالتتر فالاتراك بنو عثمان الى يومنا هذا أيّد الله سلطانهم

ففي استيلاء هذه الدول المختلفـة على الكلدان النصارى كان قد قامت عليهم اضطهادات كثيرة احتُوا معها الموت ولم تكن الامور تستتبّ لهم فلم يزالوا بين صعود

وهبوط دائماً اللهمَّ الا في عهد الخلفاء الذين نشأوا في بغداد وفيها كان مقرُّ جاثالقتهم فازوا في ايامهم بالراحة وكان لهم التقدُّم على سائر الملل النصرانية عندهم وارتقوا في مراقي النظريَّة والعملية وظهر فيهم علماء بارعون لهم اليد الطولى في معرفة اللغات الشرقية كما هم عليه الآن من الامن والسلام لسابغ ظلّ خلفاء بني عثمان رفع الله راية دولتهم

٣

واما لسانهم الاصلي فهو الارامي اي الكلداني وهو السرياني الشرقي نفسهُ وقد عُرف بالشرقي لتمييزهِ عن الغربي وهو لغة السوريين فان الغربيين قد اخترعوا فيهِ لفظاً غريباً غريباً ولهذا صارت سريانيتهم تُعرف بالغربية. ومن اخصّ الفرق في هذا اللفظ هو انهم يضمّون الفتح المعروف بالزقاف (ܦܬܚܐ) مطلقاً واما السريانية الشرقية المحفوظة الى يومنا هذا عند الشرقيين من السريان (وهم الكلدان) او البابليون والآثوريون وما نُسب اليهم فمن علامتها فتح الزقاف وتشديد ما بعد الفتاح غالباً وهي اللغة القديمة الصحيحة. ولذلك دلائل:

الدليل الاول: اقرار بعض مشتهري علماء الغربيين مثل غريغوريوس ابي الفرج ابن العبري فانهُ يشهد بان لفظ الشرقيين هو الاصح وانهم بنو الكلدان البكورة (ܒܢܝܗܘܢ ܒܟܪܝܗ ܕܟܠܕܝܐ) وعلى هذا الراي ذهب العلامة الشهير الطائر الصيت المطران اقليميس يوسف داود في مقدمة كتابهِ المعنون بهذا العنوان « اللمعة الشهية في نحو اللغة الارامية »

الدليل الثاني: الموافقة التامّة الملحوظة بين لغتهم والكلداني القديم كما هو في التلمود ودانيال الخ. والمغايرة باللفظ بين هذه والسريانية الغربية

الدليل الثالث: المطابقة بين لفظهم والسريانية الاصلية الأوَّلية التي شاعت بين اليهود بعد الرجوع من السبي وهي هي التي كانت دارجةً وشائعةً بين العامة ومستعملةً لا غيرها. وهذه المطابقة تظهر جليّاً في الالفاظ السريانية المتدرجة في الانجيل المقدس وغيره من اسفار العهد الجديد كلفظة ܕܡܐ ܕܒܚܐ (حقل الدم) و ܒܪܬܐ (فتاة) و ܕܒܚܐ (ظبية) و ܛܒܐ و ܟܝܢܐ و ܒܝܬܐ و ܒܪܢܫܐ الخ. وبهذه اللغة عينها كُتب عنوان المسيح فوق الصليب ولا يحتاج بيان ذلك الى دليل فوق هذا الدليل الواضح

الدليل الرابع: من الالفاظ القديمة المستفادة من هذه اللغة في وقتنا الدالة على اماكن واشخاص لدى الروم والسريان الغربيين قاطبةً حتى انهُ يستلزم من ذلك ان هذه اللغة لم تكن العامية والدارجة لدى الشرقيين فقط بل ولدى الغربيين ايضاً. وانما تغيرت فيما بعد (وقيل ان مغيِّرها يعقوب الرهاوي) ومن ذلك: (ܐܒܐ) سابا اي الشيخ وماروثا (ܡܪܘܬܐ) سيادة. وباثورا. وباتنورا. وابا. وعقبشما. وايتالاها. ورشعينا. ورشكيفا الخ

الدليل الخامس: عموم هذه اللغة اليوم القرى اليهودية والمسيحية سواء كان اهلها يعاقبةً (اي سريانًا غربيين) او نساطرة او كلدانًا كاثوليكيين في انحاء آثور والجزيرة وجبال كردستان واورمية وسنا. فان في هذه البلاد جميعاً قد تغلب واندرج في كلام العامة لفظ الشرقيين لا الغربيين. ولاريب في ان تكون هذه اللغة لغتهم الاصلية عموماً ولا يتصور في هولاء سبب التغيير (وانما التغيير في غيرهم ظاهر الداعي) وما غيَّر غيرُهم لفظة الا من اختلاط وتسلط لغة الدولة عليه كما قد اخذت الان ان تنتشر بين ابناء العرب والطوائف النصرانية اللغة التركية. ما عدا القرى المنفردة التي لم يتداخل اهلها مع غيرهم ولم يقطن فيها غير ذويها فلم تزل ثبَّت اللغة العامة الدارجة في التكلم وقد حُفظ اصلها مع فساد كثير من صحيحها اذ قد دخلت فيها كلمات عربية وكردية لمجاورتهم العرب والكرد. وبهذه لغة العامة يتكلم ايضاً سريان قره قوش ويعاقبة بارطلَّة وكذا ايضاً يهود زاخو. اما الكلدان القاطنون في المدن فلتغلُّب العربية قد اندثرت شيئاً فشيئاً لغتهم السريانية وقد حفظوا منها بعض الكلمات بل وجميع الكلمات الطقسية الاصطلاحية ولم يزل عامَّة الشرقيين والغربيين يتداولونها في كلامهم. فمن ذلك: البرَّاخ (ܒܪܟܐ) والقداس (ܩܘܕܫܐ) والباعوثة (ܒܥܘܬܐ) والناقوس (ܢܩܘܣܐ) والساعور (ܫܥܘܪܐ) والرياح (ܪܘܚܐ) والقشمشت (ܩܫܫܘܬܐ) والعدَّان (ܥܕܢܐ) والباصلوثات (ܒܨܠܘܬܐ) والرازي (ܪܙܐ) الخ

الدليل السادس: حداثة الخط والحركات اليونانية عند الغربيين وقدميته والحروف السطرنجيلية الغربية للعبرانية لدى الشرقيين

الدليل السابع: موافقة لغة الشرقيين مع كتب الصابئة الذين هم بنو الكلدان

الاولين وهم الآن يسكنون حوالي خليج فارس والبصرة ونهر كارون الخ فان لفظهم ولغتهم مشابهان للفظ ولغة الشرقيين. واعلم ان المسيو سيوفي بسردهِ وروايتهِ عن مذهب الصُّبَّأ قد نقل عنهم الاسماء بلفظ الغربيين وذلك لانَّ الاوربيين يقرأون قراءة الغربيين لشيوعها عندهم

الدليل الثامن: من الالفاظ العربية المشابهة للكلدانية لفظاً ومعنىً وصيغةً ولا يبعد ان يكون اصلها من الكلدانية فانها تلفظ لفظ الشرقيين بالتشديد وفتح الزقاف المُمال من ذلك قولهم: صدّيق (ܨܕܝܩ) وقديس (ܩܕܝܫ) وجبّار (ܓܒܪ) وقصّاب (ܩܨܒ) وفدّان (ܦܕܢ) ورَمّ (ܪܡ) وتَنين (ܬܢܝܢ) الخ. ومن الافعال كثيرٌ ممَّا يشابه لفظ الشرقيين منها صيغة ماضي الاجوف الثلاثي وصيغة فَعَّل الثلاثي من ذلك قولهم: دان (ܕܝܢ) وقام (ܩܡ) وصار (ܨܪ) (بمعنى صوَّر) ونام (ܢܡ) وصاد (ܨܝܕ) وتاب (ܬܒ) الخ. ومنهُ ايضاً قولهم: سبّح (ܫܒܚ) وسبَّح (ܫܒܚ) وطيَّر (ܛܝܪ) وسلَّم (ܫܠܡ) وفي هذا كفاية لبيان الغرض. ومع هذا فليس الآن عالم محقّق يخفى عنهُ صدق هذه القضية لاعتبارات شتَّى ضربنا عنها صفحاً خشية الاسهاب

٤

واماً شان اتساع هذه الملة فيظهر من قول عمرو المؤرخ في منسلخ القرن الثالث عشر في عهد طيماثاوس الثاني الجاثليق في جدول الكراسي المطرانية وهاكهُ:

١ ان الكرسي الاول الذي هو رأس الكراسي وفيهِ يجلس البطريرك كان يحتوي قديماً على المدينتين سلوقية وقطيسفون ثم أُضيف اليهِ في مرور الزمان بغداد والموصل. وما عدا هذه فان مُقاطعة (هوفركيَّة) البطركية كانت تشتمل على ثلثين كنيسة اسقفية. وكانت تدعى المقاطعة الكبرى ومن هذه الاسقفيات كشكر والزوابة والحيرة والكوفة وواسط والانبار (وهي فيروز شابور) وطيرهان وسنا والبوازيج وداسن ونهروان والنعمانية وسنجار ورقة ومعلثاي وحديثة وبلد وثمانون. اما المطرانيات فاولها كرسي عيلام وهي جنديسابور وتدعى عند المؤرخين مطرنة لافاط او بيلافاط جنديجبذ والاهوا ايضاً ومن اسقفياتها التابعة سوس وشستر وليدن ومهدجرد

٢ والكرسي الثاني رتبةً نصيبين ومن اسقفياتها ارزون والجزيرة (جزيرة عمر)

وتارةً بلد (وهي من مقاطعة البطريرك) وسنجـار وآمد وماردين وباعربايا وميافارقين وحران وحصن كيفا ومعرَّة (وتلكيف) وكانت تارةً تزداد واخرى تنقص (١

٣ : مطرنة فرات ميشان وهي البصرة. ٤ الموصل وآثور. ٥ اربيـل وحزة (سنجقبت). ٦ باجرمي وهي بيت سلوخ وكركوك. ٧ حلوان اي حلح وهي اليوم سليمانية. وهولاء المطارين السبعة هم اصحاب سياميذ الفطرك. ٨ اورشليم القدس الشريف. ٩ الرها وهي اورفا اليوم. ١٠ فارس او اورمية وسلمـت ووان وهي اليوم خـراوا. ١١ مرو وهي خوراسان. ١٢ هراة. ١٣ الرازقيين اي العرب وسُقُطرة (وهي جزيرة في بحر عمان). ١٤ الصين. ١٥ الهنـد. ١٦ ارمينية. ١٧ سورية اي دمشق الشام. ١٨ بردع اي اذربيجـان (وقد كانت هذه يوماً قاعدة بلاد ايران). ١٩ الري وطبرستان (الري مدينة في عراق العجم وطبرستان هي هرقالية القديمة). ٢٠ الديلم. ٢١ سمرقنـد وما وراء النهر. ٢٢ قشغر وتركستان (وهي بلاد ما وراء نهـر جيحون). ٢٣ بلخ وطوخرستان. ٢٤ سجستان. ٢٥ همـدان. ٢٦ خان بالق وآل بالق وهي الخطا في شمالي الصـين حيث هي اليوم. ٢٧ تنكث في بلاد التتر. ٢٨ التواكث وقشغر في التركستان

قال عمرو بن متى وكل واحد من هولاء الآباء له اساقفة منهم مَن له اثنا عشر اسقفاً ومنهم من له ستة اساقفة (ستأتي البقية)

المطبوعات في آخر سنة ١٨٩٨

للاب هنري لامنس اليسوعي

منذ انتشر فنّ الطباعة لم تزل المطبوعات في نموّ متواصل ولو حاولت دولةٌ من

١) ما تراه مكرّرًا ذكرهُ من الاسقفيات والمطرنيات فاعلم ان هذه قد تُضم احياناً الى التي بجانبها فلو كرسيها كما ان الآن مطرنة السعادية ومطرنة النقر يديرها مطران واحد فلو احداها من مديرها الخاص